حوليات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

العدد الأول
1989

ثمن العدد : 350 أوقية

بسم الله الرحمن الرحيم

حركة الإمام ناصر الدين ومنزلتها من تاريخ الإسلام في غرب افريقيا

الدكتور/أحمد جمال ولد الحسن
قسم اللغة العربية

لقد تعددت الدراسات المتعلقة بتاريخ الإسلام في غرب إفريقيا خلال السنوات الأخيرة ، واتسع نطاق المسائل والظواهر التى تناولتها هذه الدراسات على اختلاف بينها كبير في المناهج والمنطلقات ، والمصادر والمستندات. إلا أن التقدم المطرد في حصيلة هذا الحقل المعرفي كمّا وكيفا لم يعد محل جدال.

بيد أن المراقب الغمر – مثل كاتب هذه الأسطر – لا يملك إلا أن يبدي بعض المآخذ على هذه الحركة العلمية : منها أن الكثرة المطلقة مما تنتجه لا يصل إلى القارئ بالعربية عربيا كان أو غيره. والمفروض أن هذا القارئ أول المعنيين بها وأوفر الناس حظا من مقومات الحوار معها ، حوار تثري من خلاله حصيلتها ، أو تتناولها بالمراجعة والتعديل.

ومن مآخذ المراقب الغمر على هذه الحركة العلمية أنها غالبا ما تركز اهتمامها على مسائل بعينها : شخصيات أو مدارس أو دولا فتظل تبدئ فيها وتعيد ، مغفلة قضايا أخرى قد لا تكون دونها قيمة ، وإعانة على فهم مسار التاريخ.

ومن هذه الظواهر المهملة نسبيا ، حركة الإمام ناصر الدين ، التي قامت في الجنوب الغربي من موريتانيا الراهنة خلال القرن ١١ الهجري / ١٧ م ، وشمل تأثيرها المباشر حوض نهر السنغال كله تقريبا ، بينما امتد تأثيرها غير المباشر -على ما نعتقد- إلى السودان الغربي المسلم كله .

وسنسعى في هذه المحاولة إلى تبيّن ما تتيح لنا معلوماتنا المتواضعة تبيّنه من ملامح هذه الحركة التي كانت ذات أثر حاسم له ما بعده في انتشار الإسلام في هذه المنطقة وفي العلاقات مابين شعوبها المسلمة ، وما بين هذه الشعوب وبين الاستعمار الغربي.

وسنتناول في البداية مصادرنا المتعلقة بهذا الموضوع تناولا نقديا. ثم نتتبع احداث الحركة التاريخية تتبّعا خاطفا ، قبل أن نبرز أهم

الخصائص التي ميزتها ، ونختم باستعراض النتائج المنجرة عن هذه الحركة بالنسبة لمهدها موريتانيا ، ولممالك الضفة الجنوبية من نهر السنغال ، وللعلاقات بين سكان الضفتين.

١- المصادر

لم يترك لنا الإمام ناصر الدين كتابا نقرؤه ، ولا وصلناأثر مكتوب لأحد ممن رأوه عيانا ، وخبروا حركته على صعيد الواقع. وهذه ثغرة في معرفتنا التاريخية بالرجل لعلها لا تسد أبدا . وهي - ولا ريب - أصل هذا الغموض الذي يلف تفاصيل أمره ، ويحول بيننا وبين العلم اليقيني بتكوينه وآرائه ، وكثير من أحداث حياته ، ويجعل تصورنا إياه مرهونا بمعطيات ينقلها عنه رجال قد لا نشك في صدقهم ونزاهتهم أو بعضهم على الأقل ولكننا نجزم بأنهم كانوا يتصورون الأشياء ويصورونها متأثرين بتكوينهم ومواقفهم الفكرية والسياسية والمقتضيات الحافة بهم وهم ينشئون "خطابهم" المتعلق بالإمام ناصر الدين.

ولهذا رأينا من المفيد أن نعرض لمصادرنا بالنقد قبل أن نستثمرها في سرد الأحداث وذلك بغية إقامة مسافة معرفية بين الخطاب وموضوعه تجعلنا نحتاط منهجيا ، فلا نطابق بينهما كما فعل أكثر من تناولوا هذا الموضوع ، فاعتبروا أن ما تحويه هذه المصادر هو الإمام ناصر الدين ، كل الإمام ناصر الدين ولا شيء غير الإمام ناصر الدين.

وأهم المصادر المتعلقة بهذا الرجل ثلاثة متباينة غاية التباين من حيث موقف أصحابها منه وعلاقاتهم بحركته ، وموقعهم منه زمانا ومكانا وانتماء عقائديا ، كما تختلف حجما ولغة ومضمونا.

ومن هذه المصادر الثلاثة مصدران تجمع بينهما سمتان : معاصرة الإمام و الموقف العدائي منه ، وأما في سوى ذلك فلا يلتقيان. كتب أحدهما بالعربية فقيه مسلم من مدينة "ولاته" ، وكتب الثاني بالفرنسية إداري مسيحي كان مديرا للشركة التجارية الفرنسية في مدينة "سان لويس" بالسنغال. رأى الفقيه الولاتي في الإمام رجلا "من طلبة البادية خليقا بأن ينكر عليه لتعرضه للغيب الذي استأثر الله به ، ولاطراحه مراجعة كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وكلام السلف واستغنائه في الأحكام بما زعم أنه تلقاه من الخضر عليه السلام ، ولتعرضه للفتن بين المسلمين" (١).

ورأى فيه الإداري التجاري الفرنسي رجل دين مشاغبا أفسد بلاده وأقنع شعوب الممالك المجاورة بالثورة على ملوكها والخضوع لنفوذه

تحت ستار الدين والحرية وشكل بذلك خطرا جسيما على المصالح التجارية الفرنسية في حوض نهر السنغال (٢).

وثالث المصادر كتاب "أمر الولي ناصر الدين" ويدل عنوانه جليا على موقف صاحبه المناقض لسابقيه ، فقد رأى في الرجل الذي ألف في مناقبه وكراماته وليا كاملا جمع علوم الأولين والآخرين ، وأحيا السنة وأمات البدعة ، وكشف له عن محجبات الغيوب... (٣).

وإذا تركنا جانبا ، في ميدان الاستنتاج التاريخي ، وثيقة الفقيه الولاتي لقلة ما تحويه من معلومات فإن المصدرين الأساسيين المتعلقين بهذه الحركة يبقيان كتاب اليدالي ووثيقة شامبونو ، وعليهما جميعا أو متفرقين يعتمد كل من تناول الحركة فيما نعلم إلى حد الآن.

وواضح أن الباحث التاريخي لا يمكنه إلا أن يستفيد من هذين الأثرين بكل احتراز. حيث ينطلق أحدهما من عداء ألد ، وثانيهما من تبن عميق. بيد أنهما لا يخلوان من نوع من تكامل. فاليدالي ، وهو ينتمي إلى قبيلة الإمام ويعيش في الجيل الثاني بعد الهزيمة ، يهتم في المقام الأول بالخوارق والكرامات ولا يذكر النشاط السياسي والعسكري إلا استطرادا ، بينما على النشاط السياسي والعسكري يعكف الإداري الفرنسي وصفا وتحليلا ، ولا يرى في المحرك العقائدي إلا شعوذات وأكاذيب.

فبهذا الضرب من الاحتراز والاستغلال المتكامل نتعامل مع المصدرين الأكبرين فيما يخص موضوعنا مؤكدين ما ألمحنا اليه سابقا من أن معلوماتنا التاريخية تبقى ناقصة محتاجة إلى وثائق أخرى صادرة عن وجهات نظر مغايرة.

وقد تناولت الرجل وحركته دراسات حديثة متعددة قل منها ما اهتم بهما من الزاوية التي نريد هنا فضلا عن الوفاء بالغاية التي نتوخى. ومع اختلاف المنهج المتبع في تأويل الظاهرة ، من قراءة "عرقية" ترى فيها حربا بين العرب والبربر كما فعل مارتي (٤) إلى قراءة وظيفية انقسامية تعتبرها "أسطورة مؤسسة" لثنائية الزوايا وحسان على طريقة استيوارت (٥) إلى قراءة اقتصادية تصورها رد فعل من أصحاب التجارة الصحراوية مقاومة لتصاعد التجارة الأطلسية وهو مذهب باري (٦) وقد تبعه فيه ولد السعد (٧) بتحفظ لبق لا يغير من المضمون شيئا كبيراإلى قراءة سوسيولوجية انتروبولوجية تجعل منها تعبيرا عن الصراع على السيادة بين "مديرى عالم الغيب" ومسيرى عالم العنف" بما تحمله كلتا الفئتين من مصالح وقيم ، وهو ما دافع عنه ولد

الشيخ بعلم جم وذكاء وقاد (٨) مع هذا كله فإن الغالب على هذه الدراسات كلا إنما هوما نسميه "الاستغلال الموريتاني للظاهرة" أي الاعتماد عليها في تفسيرتاريخ المجتمع الموريتاني بعدها ، وتأويل بنيته الطبقية والايديولوجية. ونحن نستثني من هذا الحكم العام باري ، وقد كان بحكم مشاغله مهتما "باستغلال سنغالي للظاهرة" فسر من خلاله الصيرورة التاريخية في مملكة والو وبقي محكوما ، على وجه العموم بمقدماته المنهجية الاقتصادية.

أما موقع حركة الإمام ناصر الدين - وهي حركة إسلامية باتفاق الجميع -من مسار انتشار الإسلام في المنطقة ، وتأثيرها في أوضاعها الدينية والثقافية وعلاقاتها بالحركات الدينية السياسية اللاحقة فهو ما تفطن إليه قلة من الباحثين في مقالات تكاد تنحصر في أيدي المختصين نذكر منها مقالي كرتين (٩) ولفيتزون (١٠) الصادرين سنة ١٩٧١.

وفي هذا الاتجاه نريد أن يسير هنا الحديث ، تعريفابما وردفي هذين المقالين وإثراء له وإكمالا.

٢ - الأحداث

كان الجنوب الغربي الموريتاني في أواسط القرن ١١الهجري /١٧م ، يشهد حركة بشرية واقتصادية وسياسية متعددة الأطراف والمكونات نتبين ملامحها اجمالا ولا نقف على خصائصها تفصيلا. فقد كانت قبائل المغافرة العربية المحاربة قد انتصرت حديثا على بني عمها من أولاد رزك في وقعة انتيتام ، (١٠٤٠هجرية/١٦٣٠م) ، وبدأت تنفرد بالسيادة العسكرية على البلاد. وكانت قبائل الزوايا (١١) - وغالبها من أصل لمتوني ، تحاول الحصول حد ادنى من الأمان والإستقرار أمام هذه الموجات المتتالية من جباة الضرائب ونهبة الأموال ، وكانت الممالك الواقعة جنوبي نهر السنغال في بداية عهدها بالتعاون مع الفرنسيين الذين استقروا حديثا عند مصب النهر وواصلوا من ثم صراعهم مع القوى الأوروبية الأخرى الحاضرة على الشاطئ الأطلسي الموريتاني خاصة الهولانديين.

في هذا الوضع المضطرب الغامض وفي سياق جهوي تميز بسقوط دولة السعديين في المغرب بعد أن سقطت على يديها دولة سنغاي في تينبكتو، وبتوالي المجاعات والحروب ، وازدياد الخطر الأوروبي تجاريا وعسكريا ظهر في مجموعة تشمشه من زوايا الجنوب الغربي رجل لا

نعلم عن بداية حياته شيئا كثيرا. وكان اسمه الأصلي "أوبك بن ابهم بن اشفغ ابهنض. و قد استطاع بفعل مواعظه البليغة "وخوارقه"الكثيرة أن يجمع حوله أكثر زوايا المنطقة بل سكانها قاطبة. وبعد ثلاث سنوات من الوعظ والتربية سماها الناس "أعوام التوبة " دعا الناس إلى بيعته وتسمى" سيدنا " ثم "إمامنا" ثم "مشيع الدين " ثم "ناصر الدين " (١٢) .

وشرع في اقامة نواة دولة فاتخذ الوزراء والقضاة وسعاة الزكاة ، وأرسل الرسل إلى ملوك ضفة النهر يدعوهم فيها إلى " أن يتوبوا إلى الله ، ويكثروا من الصلاة ويطيلوها، وأن لا يزيدوا على أربع نساء، وأن يطردوا المغنين والمهرجين وأصحاب المجون، وأعلمهم أن الله لا يبيح لهم أن ينهبوا أموال رعاياهم ولا أن يقتلوهم أو يتخذوهم عبيدا " (١٣) ، وبعد أن عاد رسوله للمرة السابعة يحمل رفض ساتيكي ، ملك فوتا ، شرع في توجيه دعوته إلى شعوب المنطقة ، محرضا إياها على الإطاحة بالملوك الظلمة. وسرعان ما استجابت لندائه الشعوب وشملت الثورة ممالك " فوتا " و " جولف " و " كايور" و " والو " ، وفي كل منها عين الإمام ناصر الدين نائباعنه من أبناء البلد ، سار سيرة ملائمة لمقتضيات الدعوة الدينية الجديدة. وانضوت تحت رايةالإمام ناصر الدين مناطق شاسعة تشمل حوض نهر السنغال كله بشعوبه المتعددة من عرب وبربر وولوف وبولار وفلان . وقد تضرر من ذلك طرفان لم يلبثا أن تحالفا بغية القضاء على هذا "المشعوذ الخطير " ونعني اصحاب السلطة التقليدية في المناطق التابعة للإمام والسلطات الفرنسية في "سان لويس " التي رأت في هذا الرجل خطرا سياسيا واقتصاديا مهولا . وقد صرح شامبونو بموقف الفرنسيين الواضح من الطرفين المتنازعين إذ ذاك فقال: " إن الملوك يأتوننا لبضائعنا ، أما رجال الدين فإنهم يفتخرون بتجنبهم لنا، وذلك حتى يظهروا لشعوبهم أنهم زاهدون في لذات الدنيا وأنهم لا يعملون إلا لوجه الله وإعزاز دينه.ثم إنهم يزدروننا كثيرا بسبب الإختلاف بين ديننا وشعوذتهم ويوهمون شعوبهم أننا لا نشتري العبيد إلا لنأكلهم. ومنذ أصبحوا سادة البلاد فإن عبدا واحدا لم يدخل إلي سفننا. وبدون "السادة " يستحيل أن تكون لنا التجارة الرابحة بكل البضائع ... إن أحد هؤلاء الملوك لا يستطيع أن يستبقي لنفسه شيئا حين يرى سفينة محملة بكل اصناف البضائع الجيدة" (١٤). وقد رفض الإداري الفرنسي دي مشين عرض الإمام ناصر الدين إقامة علاقات تجارية مبنية على الإحترام والمصلحة المتبادلين ، وعمل بكل ما اوتي من قوة للقضاء على "دولة التوبة وإمامها".

وفي ظروف لا تخلو من غموض انفجر الصراع على الضفة الشمالية
من النهر بين الإمام ناصر الدين وبين المغافرة. واندلعت النار بين
الطرفين ، وفي الثانية منها – وهي وقعة ترتلاس
(١٠٨٥هجرية/١٦٧٤م) قتل الإمام ناصر الدين ، وجماعة من خيرة اتباعه
رغم انتصار جيشه.

وكان موته خسارة لحركته لا تعوض ، فلم يكن من خلفائه من يتمتع
بالإجماع المطلق المنعقد حول شخصه ولا بطاقاته الفذة في التعبئة
والإقناع فضلا عن هالة التقديس المحيطة به.

وبدأت الخلافات في جنده بمجرد موته ، غير أنهم تمكنوا ، بعد خلع
أشفغ الأمين بن سيد الفاضل عن إمامة قصيرة ، من تعيين إمام جديد
هو القاضي عثمان.

وشرع الإداري الفرنسي دي مشين يستدرج والي الإمام ناصر الدين
على مملكة والو وهو الذي يسميه اليدالي انطي صار (١٥) ويدعوه
شامبونو يريم كودي (١٦) لينقض عهد "التوبة" وينفصل عن دولتها ،
ولم ييأس الفرنسي لإخفاق محاولته الأولى بل أعاد الكرة حتى ظفر
ببغايته فأعلن هذا الملك الحرب على الدولة ، وتحالف مع أعدائها شمال
النهر من زعماء المغافرة ، وعلى يديه قتل إمامها القاضي عثمان في
وقعة انتينو ، وذلك بعون قوي من سيد سان لويس (١٧).

وتتالت المعارك بين خلفاء ناصر الدين و التحالف المعادي لهم
المتألف من قادة المغافرة وملوك ضفة النهر السابقين يدعمهم
الفرنسيون ، حتى انتهت إلى هزيمة تن يفظاظ الساحقة حوالي
١٠٨٨هجرية/١٦٧٧م.

تلك كانت بإيجاز مخل أبرز أحداث حركة الإمام ناصر الدين ،
المعروفة بجانبها العسكري بإسم شربيه. وهي على رأي اليدالي كلمة
بربرية تدل على شعار كان أنصار الإمام يتخذونه لهم ميزة (١٨). فما
هي أبرز خصائصها بالنسبة لموضوعنا؟

٣ - الخصائص :

من ابرز خصائص هذه الحركة إنها قد حملت الإسلام المجاهد لأول مرة
في هذه المنطقة منذ عهد المرابطين بعد قرون من الفراغ السياسي في
الصحراء الصنهاجية ولذلك رأى اليدالي " أن أكبر آيات ناصر الدين رضي الله
وكراماته إقبال الناس إليه من كل وجه بدويهم وحضريهم وأعرابيهم وأعجميهم ... مع أن
البلد لم يكن فيه سلطان ولا وال قط فلا علم له بتقديم أحد علي أحد ، إلا أن ملوكا من
السودان كانوا في أرض بعيدة ، وكانوا يخشون السبي والإغارة من أولئك الملوك.. " (١٩).

وهذا الإسلام الفاعل سياسيا وعسكريا هو الذي أثار دهشة الفرنسيين الذين لم يكونوا يتصورون رجل الدين إلا درويشا زاهدا ، ولهذا افتتح شامبونو حديثه عن حركة التوبة بالتأكيد أنها أمر لم يسبق له مثيل " وما رأى الناس قط مرابطا (٢٠) أو راهبا - وهو الذي يجب أن يكون تواضعه عميقا وزهده متصلا ، وألا يهتم بثروات الدول أكثر من اهتمامه بالطين - يغادر وطنه ويذهب إلى بلد بعيد ليدفع أهله إلى الثورة ، ويجعلهم يقتلون أو يطردون ملوكهم بحجة الدين والوحي الالهي ليستولي عليهم ويحكمهم " (٢١).

وقد عارض جماعة من الفقهاء حركة الإمام ناصر الدين من نفس المنطلق تقريبا ، أي طول العهد بالإسلام المجاهد والحذر من "الفتنة" التي تنجر عن اهتمام رجال الدين بشؤون السياسة وتدبير الدول (٢٢).

وقد استطاع الإمام ناصر الدين بفضل هذا الإسلام المجاهد أن يجمع سكان حوض النهر والسنغال كلهم تقريبا في دولة واحدة تحت راية دعوة إسلامية ، وقد تم له ذلك بالاعتماد على السكان والإرتباط بمصالحهم ، فلم يكن يفتح البلاد بل كان يدعو سكانها فيثورون. لقد كانوا " يرون رجلا لم يبلغ الثلاثين ... غير معتن بالثياب حليق الرأس لا يحدثهم إلا عن شرع الله ومصلحتهم وحريتهم " (٢٣) وكان يقول لهم : "إن الله لا يبيح للملوك أن ينهبوا أو يقتلوا أو يستعبدوا شعوبهم ، بل أمرهم برعايتهم وحمايتهم من أعدائهم ، وأن الشعوب لم تخلق للملوك بل خلقت الملوك للشعوب " (٢٤). وعند سماع هذا الخطاب كانوا" يمزقون ثيابهم ، ويحلقون رأوسهم ويضاعفون عدد صلواتهم ... ثم يصيحون في وجه ملكهم إنه ظالم يجب التخلص منه " (٢٥).

وقد شكلت هده السلطة الموحدة المرتبطة بمصالح جماهيرها خطرا كبيرا على النفوذ الاستعماري الناشئ. وكنا أشرنا في ما سبق إلى بعض ملامح الموقف الفرنسي من الإمام ناصر الدين ، وهو موقف عدائي منذ البداية عمل اصحابه على تفكيك "دولة التوبة " أعانوا أعداءها بالمال والسلاح ، وأبوا أن يقيموا مع إمامها علاقات مسالمة حين عرضها عليهم . ولهذا الموقف أسباب سياسية واقتصادية واضحة ، فقد أوقف الإمام ناصر الدين تجارة الرقيق مع الفرنسيين من منطلق ديني واضح هو منع بيع المسلم للكافر (٢٦) ، كما كان من المنتظر أن يفاوضهم في شأن سائر البضائع من موقف القوة والاستقلال ، وذلك على العكس تماما من الملوك التقليديين ، الذين اصبحوا عبيد عاداتهم الاستهلاكية. ولا شك أن حركة الإمام ناصر الدين لو أتيح لها النجاح لكانت ذات أثر

كبير في تاريخ المنطقة ، ولانطبعت حياة شعوبها بهذه الخصائص التي ذكرناها ، ولكنها حتى وهي مهزومة قد كانت لها نتائج ذات بال.

٤ - النتائج

أ - في موريتانيا :

أدت هزيمة الحركة إلى وضع حد نهائي لمحاولات الجهاد ، و إلى تكريس التقسيم الفئوي الذي يمنع بموجبه على حملة العلم والدين حمل السلاح للهجوم أو التدخل في شؤون السلطة العسكرية ، وقد رفعوا شعار "من حمل السلاح فقد ترك الصلاح" ، ونشأ عن ذلك ضرب من "اللائكية الفعلية "غير مصرح به ولكنه بالغ التأثير في الحياة الفكرية والإجتماعية.

ولكن إلغاء الخيار السياسي العسكري لم يترك قبائل الزوايا مكتوفة الأيدي ، بل إنها قد نشطت نشاطا بالغا في ميدانين مرتبطين : الثقافة العربية الإسلامية والتصوف الطرقي. فازدهرت في هذه الصحراء الشنقيطية علوم الشرع الإسلامي واللغة العربية ازدهارا كبيرا وأصبحت الطرق الصوفية مؤسسات فكرية واقتصادية ذات إشعاع عظيم.

ثم إن انتصار المغافرة - وهم القبائل العربية المعادية للإمام ناصر الدين - وما نجم عنه من قيام الإمارات المغفرية أو "المتمغفرة" قد عجل بتعرب فئات عريضة من سكان بلاد شنقيط وسادت لغتهم الحسانية فكانت أداة توحيد للمجتمع العربي الشنقيطي.

ب - في ممالك الضفة الجنوبية من النهر :

كانت أهم نتائج حركة الإمام ناصر الدين في هذه الممالك هي الانتقال من إسلام الملوك إلى إسلام الشعوب. وذلك أن السلالات المالكة كانت تعلن إسلامها بانتظام منذ القرن ٥ هجري / ١١م على الأقل (٢٧) بينما كان إسلام الرعايا على سطحيته مشوبا أحيانا كثيرة بأضغاث من وثنية.

ولا يمكن فهم التحول الظاهر في انتقال الإسلام من البلاط إلى حياة العامة ، وتحوله إلى سلاح بأيدي الشعوب ، وراية لحركات الثوار إلا بالرجوع إلى حركة الإمام ناصر الدين ، التي اعتمدت أساليب شعبية في الدعوة والعمل السياسي وربطت بين الإسلام وبين مطالب التغيير عند الجماهير العريضة.

وقد كان من شأن هزيمة الحركة على أيدي التحالف الأرستقراطي الفرنسي ، أن يشكل المهاد الصالح لهذا المسار التاريخي إذ ارتبط

ملوك المنطقة بالتجارة الفرنسية وما تمنحهم إياه من امتيازات ، وما يقتضيه التعامل معها من البطش بالشعوب واستغلال ثرواتها وبيعها عبيدا ، بينما بقيت عامة الشعب متجهة إلى الإيديولوجيا الإسلامية الحامية من ظلم "الملوك والنصارى". ولنسق هنا قول شامبونو متحسرا على اهدار دم بعض الفرنسيين وقد قتلهم رجال دولة التوبة "لو أن هؤلاء الرجال البيض كانوا قتلوا في بلاد أحد الملوك للزم أن يدفع البلد كله إلينا أكثر من ثلاثمائة عبد ، وأن يسلم إلينا ما أردنا من المجرمين لننتقم منهم كيف نشاء" (٢٨).

ومن هنا يسهل على المرء أن يفهم انتقال الإسلام المجاهد إلى الضفة الجنوبية من النهر بعد أن هزم في الشمالية ، ويتضح له أن الثورات المتتالية التي أدت إلى قيام الدول الإسلامية في بوندو وفوتا جالون وحركات الجهاد في القرن ١٣هجري/١٩م ، إنما كانت امتدادا لحركة الإمام ناصر الدين واستثمارا للرصيد الإسلامي الشعبي الذي انشأته وخلفته وراءها. ولم يكن هذا التأثير ، كما يتبادر إلى ذهن غير المتبصر ، تأثيرا بمجرد السماع ، بل إن الحركة قد شملت هذه المناطق بالفعل وبقي فيها نفوذها الديني والإديولوجي بعد انحسار نفوذها السياسي المباشر.

وقد أوضح كرتين أن "تأثير ناصر الدين لم ينته بنهاية الحرب...وفي جنوب الصحراء ظل مفهوم الإمامة هدفا ماثلا يسعى إليه من خلال ثورات دينية" (٢٩).

وقد نبه إلى أن زعماء جميع الدول الإسلامية في الضفة الجنوبية قد اتخذوا لقب "الإمام" تأسيا بناصر الدين ، ولو صحفوه بعد إلى "المامي" أو "اليمان" وذلك بداية من الإمام مالك سي مؤسس الدولة الإسلامية في فوتا بوندو حوالي سنة ١١٠٠هجرية/١٦٩٠م وهو الذي تربطه التقاليد المروية بالبيضان "شعب ناصر الدين" (٣٠)

ولا شك أن لحركة "التوبة" تأثيرا قويا في قيام دولة إمامية في فوتا تورو ، خاصة إذا علمنا أن أكبر أئمتها وهو المامي عبد القادر قد تلقى دراسته في موريتانيا على أيدي ورثة الإمام ناصر الدين (٣١) كما يؤكد الباحثون امتداد هذا التأثير إلى فوتا جالون ، واستلهام مؤسسي دولتها الإمامية من النموذج الموريتاني (٣٢).

غير أن أحدا لم يفترض إلى حد الآن ، على ما نعلم ، أن فلول أنصار ناصر الدين قد شاركوا مباشرة في هذه الحركات والإعداد لها وهو أمر يصرح به اليدالي في استعراضه لنتائج الهزيمة الأخيرة في تن يفظاظ: "ثم انعقدت البقية من الرجال وفروا بدينهم عن المغافرة. فيهم محنض ابن جب البرتيلي

ومحنض ابن الشيخ التاندغي وقطعوا البحر ، وصاروا يجاهدون هنالك سودانا قيل انهم ليسوا على الإسلام" (٣٣) ولو أتيح لنا أن نعرف من مآل هؤلاء الرجال شيئا لأثبتت العلاقة المباشرة بين هزيمة الجهاد الموريتاني وانطلاق الجهاد السوداني.

ويبقى استنتاج كرتين جديرا بكل اهتمام إذ يقول "ان ظهور هذه السلسلة من الثورات الدينية ، التي بدأت بالجنوب الموريتاني واتبعت خطا متصلا في تماسها وتداخلها...يمكن أن يكون ظاهرة متميزة في حد ذاته ، وقد تكون له انعكاسات كبرى على تأويل التاريخ الديني في غرب افريقيا " (٣٤).

ج - في العلاقات بين شعوب المنطقة

لقد أدى قيام الحركة فهزيمتها إلى ربط جسور تواصل مستمر بين شعوب المنطقة وخاصة بين الشعب العربي في بلاد شنقيط وجيرانه من الشعوب المسلمة في حوض نهر السنغال.

وكان هذا التواصل أخذا وعطاء بيد أننا نقف منه هنا على ميزتين أساسيتين .

فقد تلقى سكان الضفة الجنوبيةمن النهر عن عرب بلاد شنقيط الثقافة العربية الإسلامية والطرق الصوفية التي ازدهرت على أيديهم بعد أن تفرغ لها أصحابها. ولافائدة من استعراض التفاصيل بل نجمل القول أن تأثير هؤلاء "الزوايا " العلمي والفكري أمر لا يحتاج برهان . فمحمد اليدالي والشيخ سيدي المختار الكنتي (ت ١٢٢٦هجرية/١٨١١م) والشيخ محمد الحافظ العلوي (ت ١٢٤٧هجرية/١٨٣٠م) والشيخ سيديا الكبير (ت١٢٨٤هجرية /١٨٦٨م) ومحمذن فال بن متالي (ت١٢٨٧هجرية/١٨٧٠م) ... وغيرهم كثيرون كان لهم تلاميذ ومريدون نشروا المعارف الإسلامية المعمقة في السودان الغربي كله (٣٥).

وبالمقابل أبدى زوايا شنقيط اهتماما كبيرا بالجهاد الإسلامي في بلاد السودان ، وناصروا أصحابه بكل ما أوتوا من قوة ، فكأنما رأوا فيهم تحقيقا لحلمهم المكبوت والقائمين نيابة عنهم بفريضة الجهاد التي عجزوا عنها . يقول الشيخ سيديا الكبير من أرجوزة له في مدح ال عثمان دان فوديو، اصحاب دولة سوكوتو :

رددتم فرضا له جموح   إذ عاق عنه العجز والطموح (٣٦)

ويكفي مثالا على ما نقول أن المامي عبد القادر ، رغم أنه قد قتل أمير الترازة اعلي الكوري (ت.١٢٠٠هجرية/١٧٨٦م) بعد هزيمة منكرة ، فإنه قد لقي تأييداً واسعا في صفوف زوايا هذه الإمارة بالذات حتى قال

فيه حرمه بن عبد الجليل العلوي :

قد فقت كل ملوك الأرض قاطبة   وفقت في العلم والعرفان كل ولي

ما سار سيرك في شأو التقى أحد   إلا سميك عبد القادر الجيلي(٣٧)

كما أن الشيخ محمد المامي بن حبيب الله (ت ١٢٩٢ هجرية/١٨٧٥م) ، كان يفخر بأن أمه قد سمته "المامي" تيمنا بهذا القائد الإسلامي العظيم.

وقد عبر هذا العالم والمنظر السياسي عما نريد هنا أحسن تعبير ، حيث قال بعد شكوى حارة من ما عليه بلاده من فوضى سياسية وغياب للدولة المركزية وتعطيل لحدود الإسلام "وقد رأيت المان بوبكر يقيم الحدود بيده بجولمه ، فلله دره !" (٣٨).

وقد وجه الشيخ محمد المامي قصيدة طويلة إلى الحاج عمر الفوتي يهنئه فيها بانتصاراته ويسدي إليه نصائحه ، ويشكو إليه وضع بلاده السياسي (٣٩) ، كما ألف أحد علماء بلاد شنقيط هو أحمد بن بدي العلوي (ت ١٣٢٣هجرية/ ١٩٠٥م) كتابا هاما عنوانه "الدرع والمغفر في الذب عن الحاج عمر" (٤٠)

ونرجو أن تكون هذه الملاحظات العجلى قد مكنت من التنبيه إلى ما لحركة ناصر الدين في تاريخ المنطقة من قوي الأثر ، وما نسجت بين شعوبها من متين الصلات وكيف تلونت نتائجها من سياق تاريخي لآخر.

ولعل هذه الوريقات تكون فاتحة اهتمام بهذه الظاهرة ومثيلاتها ، يتعاون في إنجاز مهامه الباحثون ، وتمتزج في مصبه حقول الإختصاص ، فيثري معرفتنا بماضينا وينير تصورنا لمستقبلنا ويؤصل فقهنا بنا.

هوامش

هذا البحث في أصله مساهمة في ندوة " البعد الإنساني في الحضارة الإسلامية ودوره في العلاقات العربية الإفريقية" تونس نوفمبر ١٩٨٥

١) محمد بن أبي بكر بن الهاشم الغلاوي. (ت ١٠٩٦ هجرية / ٥ - ١٦٨٤م) فتوى ملحقة بالجزء الثالث من كتاب ولد الشيخ.

OULD CHEIKH : Nomadisme, Islam et pouvoir politique dans la société maure précoloniale.

(2) LOUIS MOREAU DE CHAMBONEAU : L'histoire du Toubenan , ou changement des Royes , et Réforme de religion des Negres du Sénégal Coste d'Afrique depuis1673 qui est son origine jusqu,en 1677. in Carason T.A.Ritchie : Deux textes sur le Sénégal 1673 - 1677 BIFAN, XXX, Serie B, N°1, (1968) P 338...

٣) محمد اليدالي :امرالولي ناصر الدين

In I.HAMET: Chronique de la Mauritanie Sénégalaise Paris 1911.
ومؤلفه محمد اليدالي (١٠٩٦هجرية/١٦٨٥م - ١١٦٦هجرية/١٧٥٣م)
من أبرز علماء المنطقة في عصره ولعله أولهم تدوينا لأحداثهاالتاريخية وقد أخطأ هامت في نسبة هذا الكتاب إلى والد بن خالنا.

(4) P. MARTY : L'Emirat des Trarza Paris. E. Leroux 1916

(5) C.C.STEWART : Islam and social order in Mauritania
Oxford calarendon Press 1973

(6) B. BARRY : Le royaume du Walo
Paris Maspéro 1972
La guerre des marabouts dans la région du fleuve Sénégal. Bull. IFAN. 33, 1971, PP 564 - 589.

٧) محمد المختار ولد السعد : نظرة تاريخية على شربيه انواكشوط ١٩٨٢.

(8) OULD CHEIKH. op. cit.

(9) P.H.D CURTIN : Jihad in West Africa, early phases and inter-relations in Mauritania and Sénégal. Journal of African history, XII, Nº 1(1971) P11-24.

(10) N. LEVITZON : Notes sur les origines de l'Islam militant au Fouta- Djallon.
Notes Africaines Nº 132 Oct. 1971 P 94-96

١١) الزوايا : مصطلح يطلق في بلاد شنقيط على الفئة الإجتماعية التي تشتغل بالعلم والتجارة وتتجنب العنف العسكري.

١٢) محمد اليدالي : امر الولي... : ص ١٤-١٥

١٣)شامبونو (13) CHAMBONNEAU P. 338

١٤)شامبونو (14) CHAMBONNEAU P. 352

١٥) اليدالي ص ٢٨. ولعل اليدالي يخلط بين والي الامام ناصر الدين على "والو" وبين واليه على منطقة "كايور" وهو الذي يسمى "اندي صار" أو نداي صار:. راجع :

L.C. COLVIN : Islam and the state of Kajoor.
Journal of African History, XV, 4 (1974) PP 587- 606.

١٧)شامبونو (17) CHAMBONNEAU P. 344

١٨) اليدالي : امر الولي... ص ١٥

١٩) اليدالي : امر الولي... ص ١٠

٢٠) اصبحت كلمة مرابط Marabout تعني في غرب افريقيا رجل الدين المسالم مع انها في الأصل تعني رجل الدين المحارب ، ولهذا التطور الدلالي مغزى تاريخي كبير.

21) CHAMBONNEAU P 338

٢٢) سبق أن اشرنا إلى موقف ابن الهاشم الفلاوي وقد اتبع فيه
شيخه ابن الأعمش العلوي (ت ١١٠٧هجرية/١٦٩٦م.) راجع :

OULD CHEIKH T3 P 756.

٢٣)شامبونو

23)CHAMBONNEAU P 339

٢٤) المصدر والصفحة نفسها Idem

٢٥) المصدر والصفحة نفسها Idem

٢٦) حاول باري تفسير هذا الموقف بحرص زوايا موريتانيا على استبقاء الرقيق لا نفسهم ، وهو تفسير يلغي الأساس العقائدي الديني لحركة الإمام ويتجاهل الحقائق التاريخية في المنطقة. راجع :

OULD CHEIKH III

27)AMAR SAMB : L'Islam et L'Histoire du Sénégal

28) CHAMBONNEAU : P : 353

29) CURTIN op. cit. P18

30) Idem

٣١) المختار بن حامد: حياة موريتانيا ج ٢ ص ٦٣.

32) LEVITZON op. cit.

٣٣) اليدالي : امر الولي ناصر الدين ص ٤٩.

٣٤)كرتين

34) CURTIN op. cit. .P 32.

٣٥) يمكن الوقوف على نماذج من هذا التاثير بالرجوع إلى تراجم أهم دعاة الإسلام بالسنغال في عمر صمب " الإسلام وتاريخ السنغال ". A.SAMB. op. cit.

٣٦) الشيخ سيديا : الديوان مخطوط بملكنا.

٣٧) محمد فال بن بابه : التكملة في تاريخ إمارتي البراكنه والترارزة. تحقيق أحمد ولد الحسن . ص .

٣٨) الشيخ محمد المامي : كتاب البادية مخطوط بملكنا

٣٩) مخطوط بملكنا

٤٠) مخطوط بمكتبة أهل بدي ، النباغية.